تفسير سورة العصر

للأستاذ صلاح الدين السلجوقي
سفير الأفغانستان

بسم الله الرحمن الرحيم

« والعصر ، إن الإنسان لفي خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ».

هناك فرق بين العصر والدهر . فالدهر اسم للزمن ، من حيث المجموع ، وحتى من الأزل إلى الأبد .

وكان بين الصابئين والمجوس والكلدانيين وسائر الطوائف التي كان لها إلمام وعقيدة بسير الكواكب وأثرها في نظام الكون المادي والأدبي ثلة من الناس يعتقدون بألوهية الدهر ، عرفوا بالدهريين ، كما يشير القرآن الكريم إليهم بهذه الآية (إن يهلكنا إلا الدهر) .

وأما العصر فهو عبارة عن (حين من الدهر) أو (برهة من الزمن) تستوعب دوراً من أدوار الطبيعة أو طوراً من أطوار المجتمع ، ومرادفه (العهد) . فيقال عصر الطوفان ، وعصر الجليد ، وعصر السحر ، وعصر الذرة . ولذا ضرب الله به مثلا وأقسم به ، ولم يقسم بالدهر الذي هو مجرد كلمة جوفاء اخترعها الوهم ، لأن الماضي والمستقبل من الدهر معدومان . والشيء الموجود هو الجزء الحال في العصر .

وكما قلنا ، إن الدهر عبارة عن مجموعة الماضي والحاضر والمستقبل ، فالعصر الذي هو المهد البارز للتطورات الاجتماعية كان أجدر بأن يكون صيغة للقسم في القرآن الكريم الذي هو ينبوع لأعظم تطورات في العالم الاجتماعي .

وحينما نطالع « سورة العصر » ، التي لا تتجاوز بأكملها جملة واحدة ، نراها مرآة قدسية كبرى تنعكس فيها الأديان والفلسفات الشرقية

والغربية . وفى الوقت نفسه نجدها قسطاساً إلهيا يزن كل شيء ، ويقدر قيمته الأدبية والطبيعية ، ومحكا صادقا يفرق بين الغث والثمين .

عصر القرآن الكريم

وحينما تقسم السورة بالعصر (والألف واللام فيه للعهد الخارجى) تشير إلى عصر القرآن الكريم ، لأنه أهم العصور فى تضارب الآراء والأفكار والمكاتب الفكرية والمسائل الاجتماعية والنظم الإدارية ... وكان هناك صراع بين القياصرة والأكاسرة والأباطرة ، وكان صراع بين الفردية والاشتراكية ، وبين الإلهية واللا إلهية ، وبين التوحيد والثنوية والتثليث . وبين قدم العالم وحدوثه ، وبين الدهريين والإلهيين ، وبين إمتداد الزمن واستدارته ، وبين مسئولية الإنسان وعدمها ، وبين أهداف الدين والأخلاق ، هل هى الخير ، أو السعادة ، أو اللذة ، أو الوظيفة ، أو الكمال ، أم هى التخلق بأخلاق الله تعالى . وهل الوصول إلى الهدف يكون هنا فى هذه النشأة ، أم فى النشأة الأخرى ؟ .

كما أنها تشير إلى هذا العصر المتضارب فى آرائه ، والذى هو فى مسيس الحاجة إلى فيصل يفصل الأمر ، وإلى فرقان يفرق بين الحق والباطل وسلوك يكافىء النقص والموت .

وحينما تنسب السورة ، الخسران ، إلى الإنسان نفسه ، فإنما تفصح بأن هذا الخسران لا علاقة له بالزمان ، كما زعم الدهريون ، ولا بآلام الإنسان وأسقامه ، كما يقول بوذا . ذلك لأن المسلم المتفائل يعالج إسقامه بالإيمان والدواء ، ويعالج آلامه بالصبر والعمل ، ولا يفر منها إلى غيبوبة وتخدير . بل الخسران الإنسانى عمل محتوم لفطرة الله وسنة الكون ، ومن حركته نحو الذبول والزوال .

يقول الشاعر الفيلسوف عبدالقادر بيدل « كل نفس من أنفاس الإنسان يقلع لبنة من صرح عمره . وينبغى أن يكون لهذا الصرح المتزلزل معمار كهذا » .

أجل كل نفس من أنفاس الإنسان خسران ، ومهما يكن الإنسان من السعادة أو الشقاء ، من الصحة أو المرض ، من اللذة أو الألم ، فهو فى خسران دائم وموت بطىء .

وجاء فى القول المأثور « لدوا للموت وابنوا للخراب » ... وليس

هذا دليلا على التشاؤم ، لأن فى الحياة ليلا ونهاراً ، صيفاً وشتاء ، لذة وألما .. وهذه كلها أطباق على مائدة الحياة ، وأثمار فى حديقة العمر ، لا سيما إذا كان المسلم يؤمن بأن لكل خسران جبيرة ، وأن الجبيرة أعظم وأجل وأكثر دواما من الشىء الذى خسره من العمر والقوة والحياة .

وضمنا ، تشير الآية الكريمة بهذا الخسران التدريجى الذى يعم نوع الإنسان ، إلى أن الزمان الذى هو مقدار الحركة ، له مقارنة وعلاقة بهذه الحركة الفطرية التى فطر الله الناس عليها ، وبذلك يكون تناسق بين المقسم به والمقسم له .

فالسورة تؤيد بوذا بأن الإنسان فى خسر ، ولكنها لا تؤيده فى نوع الخسارة . وتؤيده أيضاً بأن الفضائل هى الطريق إلى الجبيرة . ولكن نوع الفضائل القرآنية ليست من النوع الذى قرره بوذا ، لأن الفضائل القرآنية عقلية وعملية حية ، وليست رسوما وعادات ورياضيات وطقوسا . كما تختلف السورة تماما فى نوع الجبيرة والهدف عند بوذا . فالهدف فى الحياة عند بوذا هو الطمأنينة على شكل (نرفانا) ، وهو نوع من الغيبوبة والذهول . والجبيرة عنده بعد الموت هى التناسخ إلى شخصية أكمل وأعلى ، فى أطار النوع ، وفى دهليز الطبيعة .

أما القرآن الكريم ، فالهدف من الفضائل عنده هو التخلق بأخلاق الله تعالى . وهو الفكر الذى أسس (إيمانويل كنت) الفيلسوف الألمانى، مكتبه الفكرى والخلقى عليه ، وسماه مكتب (الوظيفة لأجل الوظيفة) . وكما يقول أبو على بن مسكويه ، إن الله تعالى يخلق لأنه خالق ، ويرزق لأنه رازق لا لشىء آخر . فالمسلم يعمل الصالحات لأن هذا العمل وظيفته ، من الله مولاه العزيز (إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا) .

والجبيرة القرآنية المقررة للحياة هى الكمال المثالى فى الدنيا ، ومثال هذا الكمال هو الله تعالى وصفاته الحسنى .. وما بعد الحياة هو السعادة عند الله . والتمتع بحدائق الجمال القدسى ، وبثمار الخير السرمدى ، وبنور الحق الذى هو نور السماوات والأرض .

أجل .. إن الفضائل التى ذكرت فى السورة تتفق إلى حد كبير مع

الفضائل الأربع الأمامية لأفلاطون مع فارق فى أن اعجاز السوره قلل من الألفاظ بمئات من المرات ، وزاد فى الدلالة والاستيعاب وتوسيع المعانى بأكثر من المئات .

وحينما يقرر أفلاطون فضائله الأماميه أو الأساسية ، ويقتلها بحثا ، ويطنب فى الكلام ، ويقول أن الفضائل تنقسم إلى عقلية وعملية ، ويقول أن الفضائل العقلية أثنتان ، وكذلك الفضائل العملية ، ولكن السورة الكريمة تجمع الفضائل العقلية تحت لواء (الذين آمنوا) ، والفضائل العملية تجمعها تحت ظل (الذين عملوا الصالحات) .

فأكبر فضيلة للعقل هى أنه كشف عن اسرار الكون . ومن الكون واسراره ونظمه ، اهتدى إلى الله عز وجل وصفاته ، فالعلم بما بعد الطبيعه هو معراج العقل الإنسانى . إن الايمان هو قمة العلم وذروة الإذعان اللذين لا وجود لهما فى الفلسفة الأفلاطونية . فإيمان العقل بالله تعالى أكبر فضيلة من علمه بوجود الله تعالى .

وفضلا عن ذلك ، فإن العلم ، ولاسيما الايمان بالله ، يشمل ويستوعب جميع الفضائل العقلية ، وحتى الفضائل العمليه أيضاً . وذلك أن الله تعالى هو مصدر كل فضيلة . واسماؤه الحسنى جميعها مظاهر للفضائل العقلية والعملية فالفضائل العقلية عند أفلاطون كانت عبارة عن كلمتين هما (الحكمة) و (العدل) . مع أن العدل ، كما قيل ، مندمج فى الحكمة والفضيلتان المذكورتان فى الحقيقة هما فضيلة واحدة ، ولكن الله تعالى هو الحق والخير والجميل والعدل والحكيم والغفور والرحمن والرحيم والخالق والبارئ والمصور . له الاسماء الحسنى . . يسبح له ما فى السماوات والأرض .

أن « عمل الصالحات » يشير إلى الفضائل العملية بأسلوب أكثر استيعابا من الفضيلتين اللتين ذكرهما أفلاطون أعنى (الشجاعة) و (العفة) مع أن الكلمة اليونانية للشجاعة أعم بقليل من الشجاعة العسكريه ، وتدخل فى نطاق الشجاعة الأدبية وحتى فى منطقة الثبات . وكذلك الكلمة اليونانية للعفة أعم ، وتفيد معنى قريبا من (ضبط النفس عن الهوى) أيضاً ، ومع ذلك فالكلمتان أضيق نطاقا بكثير ، بل وبعشرات المرات من (عمل الصالحات) .

ومن جهة أخرى . فالاحسن هو أن نترك قائمة الفضائل للضمير الإنسانى كما فعلته السورة الكريمة ، وان تجمع تحت لواء واحد لا أن نذكر كل واحدة منها منفردة كما يشير إليه مكنزى وكثيرون من العلماء .

ويقول الله تعالى (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها) . ويقول عليه الصلاة والسلام (الأثم ما حاك فى النفس وكرهت أن يطلع الناس عليه) . ومعنى هذا أن للإنسان شعوراً خاصا لتمييز الخير من الشر . وتلك مسألة أقربها كثير من الاخلاقين المتأخرين أيضاً . أمثال ايمانويل كنت وشفتسبرى ، وغيرهما .

وهناك قصور فى تعليمات أفلاطون تداركه هذه السورة المباركه . وهو أن للإنسان وظيفتين التعلم والتعليم . وهذا أمر لم يفت أفلاطون وحده ، بل فات أكثر العلماء والمفكرين . وهو محصور ومختص بالدين الإسلامى الحنيف الذى هو أحسن الأديان ، وبالأمة الإسلامية التى هى خير أمة أخرجت للناس .

فسورة العصر ، بعدما أوحت الفضائل العقلية والعملية بهذا الأسلوب المعجز أوحت الينا مرة ثانية بأن نعلم هذه الفضائل ونبلغها إلى سائر الناس ، وبحيث يكون كل منا معلما ومتعلما ، وذلك كى لا تجرح روح المساواه بين الأخوان ، فقال تعالى (وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) من باب المفاعلة والمشاركة . من الطرفين سواء بسواء .

معجزة ثانيـــة

وهناك معجزة ثانية فى أسلوب السورة ، وفى ايجازها وجزالة افادتها وعدم تكرار الكلمات .

فكلمة (الحق) تستوعب (الحكمة) و (العدل) كلهما ، وهما الفضيلتان اللتان حسبهما أفلاطون من الفضائل العقلية ، لأن (الحق) ، بكيانه اللغوى هو هدف الفكر والعقل . كما أن الخير هو هدف الأعمال . و (الحق) فى اللغة العربية يستعمل أيضاً كهدف للقضاء والاحكام . ولذا يطلقون على علم القوانين كلمة (الحقوق) ، فالتواصى بالحق معناها التواصى بالحكمة والعدل والحق الذى هو موضوع العقل والفكر الإنسانى أعم بكثير من الحكمة ، لأن الحكمة نوع من هذا الحق أو علم من علومه .

يتبع